السلطان سيف الدين قلاوون في مواجهة المغول والصليبيين

م. رشا عيسى فارس

جامعة بغداد / مركز أحياء التراث العلمي العربي/ قسم توثيق بغداد

المقدمـة

لقد أولى المماليك على أبعاد الخطرين المغولي والصليبي عن دولتهم مصر والشام ، كما أن قادة القوى المناهضة للعرب والمسلمين ، عملت على استعادة هيمنتها باستخدام خطين متوازيين ، يستند أحدهما على الاستمرار في تلقي المساعدات المادية والمعنوية من الدول الاوربية ، وخاصة من البابوات الذين كانوا يبذلون جهوداً مضنية لتنظيم حملات صليبية جديدة ، وارسالها الى المشرق العربي للحفاظ على الروح الصليبية التي بدأ عنفوانها بالتضاؤل رويداً رويداً في البلدان الاوربية ، أما الخط الاخر فكان يقوم على التحالف والتنسيق مع القوى المناهضة الاخرة في المنطقة والتي تناصب المماليك العداء مثل المغول ، وكان ما يجمع هاتين القوتين هو وحدة الهدف التي تتمثل في احتلال الار اضي العربية والاسلامية والعودة الى البيت المقدس من جديد وكان طرف من هذه الاطراف المتصارعة يعمل على أضعاف الطرف الآخر ، أما بأشعال الحروب ، أو بأثارة الفتن والنزاعات الداخلية لدى الطرف الآخر ، وقد بلغ هذا التطاحن العسكري أقصى حد له ، عندما تمكن الجانب المملوكي تجسيد القوة المغولية وأستعادة اللاذقية ، آخر بلد يهيمن عليه الصليبيون من أمارة أنطاكية ، في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي .

انتقال قلاوون من المملوكية الى حكم مصر :

ولد الملك المنصور سيف الدين قلاوون الالفي في بلاد القبجاق (١) نقله أحد تجار الرقيق بعد أسره الى مصر وهو صغير السن ، فأبتاعه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقي ، وهو أحد مماليك الملك العادل الأيوبي ، وحمل لقب الألفي منذ ذلك الوقت (٢) وبعد وفاة علاء الدين عام ١٢٤٩م ، أنتقل قلاوون مع عدد آخر من المماليك ، الى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أرسلهم الى معسكرات تدريب في جزيرة الروضة في نهر النيل ، وبعد أنتهاء تلك التدريبات وأكتساب قلاوون خبرة قتالية كافية ، أعتق ومنح لقب أمير (٣).

وبعد وفاة الملك الصالح عام ١٢٤٩م خلفه توران شاه آخر ملوك الايوبين على مصر بوفاة الأخير تسلم المضر أيبك أول سلطان مملوكي مقاليد الحكم في مصر ، أستقر قلاوون في مصر برفقة بيبرس وسنقر الاشقر وغيرهما من أمراء المماليك البحرية (٤) فأستقبلهم السلطان الجديد قطز متناساً الخلافات السابقة بينهم ، وبدأوا بالاستعداد جميعاً لمواجهة الزحف االمغولي القادم نحو القدس والقاهرة ، وفي يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ / ٣ أيلول ١٢٦٠ م التقى الطرفان المتقاتلان في معركة (عين جالوت) الفاصلة ، حيث أندحر المغول وهزموا على يد قوات قطز الكاسحة (٥) .

شارك قلاوون الى جانب السلطان قطز وبيبرس في تلك المعركة ، ولما عاد جيش المظفر الى مصر ، قتل بيبرس بالاتفاق مع قلاوون قطزاً قبل وصوله الى القاهرة ، ثم حظي قلاوون بثقة بيبرس الكاملة بعد تزويج أبنه الأخير بأبنة قلاوون لغرض تأمين ولاية له .

وبعد وفاة بيبرس وخلع أبنه وهو زوج أبنه قلاوون بطلب الأخير ، شرع بالتمهيد في الخفاء للوصول الى السلطنة ، وفي عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م أجتمع الأمراء والاعيان وخلعوا السلطان (سلامش الأبن الثاني) لبيبرسر لصغر سنه ، فأنتقل الحكم الى قلاوون وتلقب بالمنصور (٦)

قلاوون يواجه المغول :

وصل المغول الى بلاد الشام عام ١٢٨٢م بقيادة منكوتمر بعد فشل اتصالات أباقا بالصليبين ، دخل منكوتمر على رأس خمسين ألفاً من المغول ، فخرج السلطان قلاوون من دمشق بأتجاه حمص ، وطلب من سنقر الاشقر أرسال التعزيزات له حسب أتفاق مسبق بينهما (٧) ، هرب سكان حلب نحو الجنوب وأستعد سكان دمشق لمغادرة المدينة (٨) ، وتقابل الجيشان بالقرب من حمص في شهر تشرين الأول ١٢٨١م ، وتمكنت ميمنة المغول من كسر مسيرة المماليك ، ولكن ميمنة المماليك هزمت مسيرة المغول ، وقتلت قائدها ، فأصبح نصف الجيشين يسيران إثر ذلك في أتجاهين متضادين ، ولما علمت ميمنة المغول بما جرى للمسيرة عادت الى أرض المعركة ، فأنقض قلاوون على الجيش المغولي من الخلف وألحق به هزيمة كبيرة (٩) . وفي اليوم التالي للمعركة أرسل السلطان خمسة الآف فارس لملاحقة المغول المندحرين ، فأسروا مايزيد على خمسمائة فارس منهم (١٠) ، وبأنتهاء هذه المعركة التي أنتصر فيها السلطان قلاوون على المغول ، توقفت المعارم بين الطرفين لفترة طويلة دامت حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي .

قلاوون يواجه الصليبين

أجبرت تهديدات المغول المستمرة لبلاد الشام ومصر السلطان قلاوون على أبرام معاهدات سلام مع الصليبين لمدة عشر سنوات ، فكانت معاهدة طرابلس عام ١٢٨١م ، ومعاهدة عكا عام ١٢٨٣م ، وقد تضمنت هاتان المعاهدتان السماح للسفن المصرية بارتياد الموانئ الصليب (١١) ، لكن قلاوون بحنكته السياسية المعروفة ، لم يوقع تلك المعاهدات مع الصليبين الا خوفاً من ضغط المغول ، ليتمكن من مواجهة الاعداء على أنفراد ، دون أن يقاتله هذان الطرفان معاً ، لذلك هاجم قلاوون الفرسان الصليبين في حصن المرقب عام ١٢٨٥م ، بعد مرور أربع سنوات على معاهدة الصلح المعقود بين الطرفين (١٢) ، ثم سقطت بانياس بالقرب من ذلك الحصن ، وأفرج عن عدد كبير من الاسرى كانوا محتجزين لدى الصليبين (١٣) ، وبعد هدنة قصيرة ، حاصر قلاوون طرابلس ونصب فيها تسعة عشر منجنيقاً فسقطت المدينة في نهاية شهر نيسان ١٢٨٩م ، وشمل القتل والاسر جميع من فيها ، ثم أمر السلطان بهدم المدينة مع أسوارها ، وبناء بلدة أخرى على بعد ميل واحد من المدينة المهدمة (١٤) ، مما دفع مارغريت صاحبة مدينة صور الى التماس الصلح لدى السلطان ، ودفعت نصف دخل ولايتها جزية له ، وقدمت وعداً بعدم أقامة تحصينات جديدة (١٥).

وفي هذه الاثناء شعر زعماء الصليبين بالخطر المحدق بهم ، فأسرعوا يرسلون السفارات الى العاصمة المملوكية ، القاهرة طالبين عقد الصلح مع المماليك لتجنب سقوط العاصمة الصليبية ، عكا ، أستجاب قلاوون للطلب ، فأتفق في صيف عام ١٢٨٩م مع ملك قبرص هنري الثاني الذي كان حاكماً على عكا ، على تجديد الهدنة لمدة عشر سنوات وعشر أشهر ، ولجأت جنوه الايطالية الى أبرام معاهدة صداقة مع قلاوون حرصاً على مصالحها التجارية في شهر آيار ١٢٩٠م ، وبذلك أخذت العلاقات التجارية بين المماليك والصليبين تعود الى مجاريها في كل من عكا وصور وبيروت من جهة وبقية البلاد العربية من جهة أخرى (١٦) . الا أن هذا السلم لم يدم طويلاً أذ مالبثت أن تجمعت جموع صليبية جديدة بناء على نداء البابا نيقولا الرابع ، فأسهمت البندقية في أنجاح هذا النداء بأن قدمت ألفاً وستمائة رجل مع عشرين سفينة حملت المتطوعين بقيادة أبن دوق البندقية ، وقد تولى قيادة الحملة الصليبية هذه أسقف طرابلس الذي أتى روما لجئاً وعندما أتجهت هذه السفن الى الشرق التحقت بها خمس سفن أخرى أرسلها ملك أراغون الذي حرص على بذل المساعدة (١٧).

وصل الصليبيون الجدد الى عكا في شهر آب ١٢٩٠ م ، تدفعهم الحماسة الدينية ، وتنقصهم المرونة والسياسة والنظام والخبرة بشؤون الحرب ، مما يذكرنا بالجموع التي ألفت الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦م .

اكتظت عكا بمزيج غير متجانس من الرجال ما لبثوا أن ارتكبوا مجازر وحشية بحق القرى الاسلامية المجاور لعكا ، مما دفع بالسلطان قلاوون الطلب من حكام عكا تسليمه المسؤولين عن هذه الأعمال الأجرامية ، ولما رفض طلبه ، صمم على أن ينهي الوجود الصليبي المتبقي بصورة كاملة ، لكنه مالبث أن توفي وهو في طريقه الى عكا على رأس جيشه في نهاية تشرين الثاني ١٢٩٠م ، فتولى الحكم في الدولة المملوكية ابنه الأشرف خليل بن قلاوون ، وقد وضع نصب عينيه تنفيذ مشروع أبيه سيف الدين قلاوون بطرد الصليبين نهائياً من الشرق .

وكان سيف الدين قلاوون قد قام قبل وفاته بأتصالات على نطاق واسع لمنع الصليبين من التعاون والتحالف مع المغول ضد المماليك ، وبذلك تمكن من أحباط خطط المغول المبيتة لأحتلال بلاد الشام ثم التقدم نحو مصر .

وقد حاول قائد المغول أباق مهاجمة سوريا بمفرده لكنه هزم في حمص كما أشرنا الى ذلك آنفاً ، وبعد وفاة أباق ووفاة القائد المغولي الذي خلفه غازان ، تسلم حكم المغول تكوادار الذي طرح بشكل جدي إمكانية أستمرار سلطة المغول البوذيين في كل من إيران والعراق ، دون أن تثير هذه السلطة نقمة السكان في البلدان ، فالغزوالمغولي ، كان قد فقد في تلك الفترة قسماً كبيراً من زخمه وإندفاعه ، وكانت لدى سكان العراق وأيران ، العريقيين بأعتاقهم الدين الاسلامي ، حساسية مفرطة تجاه الديانة البوذية التي عدت ديانة وثنية ، وبناء على ذلك وتفادياً لما سيحدث أعتنق تكودار الديانة الاسلامية ، وسمي نفسه أحمد تكودار ، ثم أرسل رسالة الى قلاوون عارضاً فيها صداقته ، ووقف المعارك بين البلدين (١٨) ، فأستقبل قلاوون الرسل أستقبالاً ودياً ، وأرسل معهم كتاباً يتضمن عبارات الصداقة والمودة رداً على ماوصله من تكودار (١٩).

ومما تقدم تظهر بوضوح المدى البعيد الذي وصلته حنكة قلاوون في عدم تفويت فرصة التقرب من المغول ، ولو لفترة محدودة تمهيداً للحصول على هدنه معهم تسمح له بالتفرغ للقضاء على الصليبين ، وقد أتيت جهود قلاوون ثمارها نسيت في أعتناق تكودار الديانه الاسلامية فحسب ، بل بقيامه ببذل كل جهد ممكن لأقناع المغول بأعتناق هذا الدين الحنيف ، وقد أصدر الأوامر لتدمير الكنائس ومنع المسيحين من التبشير بديانتهم .

غير أن أرغون أبن أباقا أعلم القائد المغولي العام قوبلاي بتصرفات تكودار ، مما أدى الى قيام آرغون بقتل تكودار وتسلم السلطة، فأعاد بناء الكنائس ثم تقرب من المسيحين ، وفسح المجال واسعاً لأعادة الاتصالات بين مغول فارس والدول الاوربية بهدف توحيد الجهود والأطباق

الخاتمة

لقد تكالبت القوى الشريرة القادمة من الشرق والغرب في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، على تحقيق هدف واحد تمثل في احتلال الاراضي العربية الاسلامية ، والهيمنة على المقدسات الاسلامية في فلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية ، باستخدام أسلوبين أحدهما إشعال الحروب ، والآخر بأثارة الفتن والنزاعات الداخلية ، وبالنظر لأصابه الأمة العربية والإسلامية بوهن شديد بسبب التفكك والتشرذم ما بين أجزائها ، وكما هو حاصل الآن ، فقد غدت الفرصة مواتية تماماً للأعداء المتربعين بهما لتحقيق الهدف المنشود الذي طالما سعوا حثيثاً للوصول إليه ، ولذلك تعرضت الأراضي العربية الاسلامية الى العدوان المغولي والصليبي معاً ، وقد تمكن المغول والصليبين من تحقيق أغلب ما كانوا يصبون اليه قبل حلول تلك الحقبة التي أشرنا إليها آنفاً ، غير أن الله عز وجل فيض من أبناء هذه الامة من يتصدى بأباء لهؤلاء الابناء السلطان المملوكي سيف الدين قلاوون سلطان مصر ، ثم أبنه خليل قلاوون الذي أنجز ما تبقى من مشروع أبيه بأنهاء الوجود الصليبي ثمك المغولي .

ان الخطوات التي أتخذها سيف الدين قلاوون في درع أخطار هؤلاء الأعداء ، بالرغم من ضعف القدرات العربية الاسلامية المتاحة آنذاك تضمنت الأسس التالية ، وهي التي تصلح للعمل بما في كل زمان ومكان :-

١- التركيز على فنون القتال بالتدريب المكثف للوصول الى مستوى رفيع يسمح بالقتال بشكل يؤمن التفوق اتلنوعي على المتفوق عددياً

٢- عقد معاهدات سلام مع طرف القتال ضد الطرف الآخر على إنفراد ، وتفويت الفرصة أمام الأعداء للتحالف والتعاون والتنسيق .

٣- أبرام عقود صلح وهدنة مع أحد الاطراف وتجديدها بين فترة وأخرى لتجسيد هذا الطرف ومنعه من القتال ضد المسلمين ، ريثما يتمكن من إلحاق الهزيمة بالطرف الآخر بشكل منفرد .

٤- عقد أتفاقيات تجارية مع الإمارات الصليبية ، لتشيجع التجارة بين الطرفين ، ومنع تلك الإمارات من الأنقياد الأعمى لمطالب البابا في العودة الى بيت المقدس .

٥- أستخدام المرونة في التعامل مع الاعداء ، وقبول سفاراتهم وصداقاتهم بصورة مرحلية لوقف المعارك بصورة موقتة تمهيد التغيير الأدوار وإيجاد فرصة مواتية للانقضاض عليهم .

٦- العمل على أستغلال التنافس القائم بين زعماء وقادة الاعداء وتأجيج تارة لصالح العرب والمسلمين ، ولعل فيما أسلفنا ذكره مايصلح لأتخاذه كمنهج عمل وسياسة عملية ضد الاعداء الجدد للأمة العربية والاسلامية ، ولايحتاج ذلك لوضعه موضع التطبيق الفعلي سوى وجود قادة من الطراز الذي نحن بصدده ، وهذه الامة لاتفتقد الى مثل هؤلاء القادة أبداً

الـهوامش

١. القبجاق فرع من الشعوب التركية ، أستوطنوا السهول الواقعة الى الشمال من البحر الاسود ، أطلق عليهم الصينيون أسم (كنجا) ، وسماهم العرب (قبجاق) واليونان (كومان) ، وكان نصفهم يدين الاسلام والنصف الآخر شعب محارب غزوا المجر بين عامي ١٠٧١-١٠٧٢م ثم قضى عليهم المغول عام ١٢٣٩م في أحدى المعارك ، تعرضوا فيها للقتل والاسر ، وبيع أسراهم عبيداً لسلطان مصر (الملك الصالح) . ينظر :
ISLam Ansilopadisi , Istanbul Universitesi , Eelebiyat Fakultesinde , Ieden, Istanbul, 1940-1945,c.7,S.634.

٢. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ) ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٩، ص٦٦٣.

٣. على ابراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية ، ط٢ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ، ص٤٥

٤. أسس المماليك في مصر سلالتين إحداهما سميت بالمماليك البحرية والاخرى المماليك البرجية ، أنشأ أيوب الصالح نجم الدين (١٢٥٣-١٣٨٢م) فصيلة الحرس وأسكنهم جزيرة الروضة في نهر النيل فأطلق عليهم أسم المماليك البحرية ، وأولهم أياك المضر عز الدين ، وأشهرهم بيبرس الظاهر ويف الدين قلاوون المنصور .
ينظر : بطرس حرفوش وآخرون ، المنجد في الاعلام ، ط٣١ ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ٦٨٥ .

٥. جمال حماد ، معركة عين جالوت ، مجلة أكتوبر ، العدد ٥٥٢ ، ٢٤ آيار ١٩٨٧م،ص٣٥

٦. جمال الدين يوسف بن تغري بردي أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، د . ت ص ٢٨٩.

٧. أبو الفدا ، عماد الدين خليل بن سماعيل بن محمد (ت٧٣٢ هـ) ،المختصر في أخبار البشر ، ط٢ ، ج٤ ، دار البحار ، بيروت ، ١٩٥٦، ص١٤

٨. المقريزي ، مصدر سابق ، ص٦٨٢.

٩. محي الدين بن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ط١ ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ،١٩٦١م.

١٠. ابن أيبك الدوداري ، أبو بكر بن عبد الله ، كنز الدرر وجامع الغرر ، ج٨ ، القاهرة ، ١٩٧١، ص٢٤٤

١١. محي الدين بن عبد الظاهر ، مصدر سابق ، ص ٤٥.

١٢.أبو الفدا ، مصدر سابق ، ص٢١.
١٣. إبن كثير ، عماد الدين أبو الفدا أسماعيل بن عمر القريشي الدمشقي (ت ٧٤٤هـ) ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ط١، مكتبة المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، صإبن كثير ، عماد الدين أبو الفدا أسماعيل بن عمر القريشي الدمشقي (ت ٧٤٤هـ) ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ط١، مكتبة المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص٣٠٥ .
١٤.المصدر نفسه ، ص ٣١٣.
١٥.ابن عبد الظاهر ، مصدر سابق ، ص٤٥.
١٦. سعيد هعبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي ، ط١ ، ج٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣م، ص١١٧٧.
١٧.ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة ، ج٣ ، ترجمة السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٦٩١.
١٨.إبن العبري ، تاريخ مختصر الدول المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٩٠، ص ص ١٥٦-١٦٤.
١٩.محي الدين بن عبد الظاهر ، مصدر سابق ، ص ٤٥ .
٢٠.المصدر السابق ، ص ص ١٥٦-١٦٤.
٢١ . المقريزي ، مصدر سابق ، ص٧٤٢.